ذكريات مريم

خواطر من ماضي الذِكرى

مريم تورکان

الإهداء الأوّل

إلى رَّوحِ جدّي عبَّاس زهران عِزّ العرب

رَحِمَهُ اللَّهُ وغفر لهُ.

مريم توركان

الإهداء الثاني

إلى مَن مَنَّ اللَّهُ عليَّ بِهم.

إلى أحبابي وأصحابي.

إلى الغالينَ على قلبي.

إلى أعزّائي.. إلى أخوالي، حفظكم رَبّي ولا أراني فيكم إلَّا ما أُحِبّ.

مريم توركان

الإهداء الثالث

إلى مَن هُم بمثابةِ إخوتي.

إلى الغالينَ عليَّ.

إلى بني أخوالي حفظكم اللَّهُ ورعاكم.

مريم توركان

الفهرس:

1_عَلاقة حُبٍّ وطيدة بزيتِ الزيتون

2_ماتَ أخي

3_غدًا ستكبُرين

4_يا لها من أيَّامٍ رائعة

5_ويكأنَّها البارحة

6_مُذ عشرةِ أعوام

7_لم تَكُن طبخة مُعقّدة

8_حينَ ماتتْ جدّتي

9_كُنتُ في الصفِّ الخامس الإبتدائي

10_زواج أُختي

11_علّمني المطبخ (1)

12_علّمني المطبخ (2)

13_علّمني المطبخ (3)

14_حينَ بلغتُ الخامسة

15_حينَ بلغتُ الثانيةَ عشر

16_حينَ بلغتُ الرابعةَ عشر

17_حينَ بلغتُ الخامسةَ عشر

18_حينَ بلغتُ السادسةَ عشر

19_حينَ بلغتُ السابعةَ عشر

20_حينَ بلغتُ الرابعةَ والعشرين

21_وذهبَ على الفاضي

22_غالي والطلب رخيص

23_أبا مُحمّد

24_أبا طه

25_ أبا أنس

1_(عَلاقة حُبٍّ وطيدة بزيتِ الزيتون)

تربطني بزيتِ الزيتونِ عَلاقة حُبٍّ وطيدة؛ لأنَّ حبيبي وسَيّدي رسول اللَّهِ _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_ أوصانا بهِ فجاء في الحديثِ: "عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ الْأَنْصَارِيِّ _رَضِيَ اللهُ عَنْهُ_ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" كَلُوا الزَّيْتَ وَادَّهِنُوا بِهِ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ"رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ وَالدَّارِمِيُّ.

أيضًا كُنتُ أتناولهُ في صِغري فكبرتُ على حُبّهِ وخاصَّة زيت الزيتون القادم من الأردن؛ فذاك الزيت شهي الرائحة ولذيذ المَطعَم، كما أنَّهُ طازج فحينَ كانَ أبي يأتينا بهِ أجدْ رائحته قد عَمّتْ البيت، ويا حبّذا مزجهِ مع بعض الزعتر، ولا أنسى طعمهُ المُميّز في طهي الطعام.

قصدتُ زجاجة زيتٍ للزيتونِ وما أن أمسكتها حتّى سقطتْ منّي فانسكبَ الزيت منها، شعرتُ بالحُزنِ تجاه ما حدث؛ فالزيت واللبن حينَ ينسكبانِ يُؤلَمُ القلب لسكبهما؛ فهما العزيزانِ على قلبي.

أذكُرُ حينَ كُنتُ طفلة كانت أُمّي تُطعمني زيت الزيتون وتدهن بهِ شعري ووجهي؛ لفوائدهِ العميمة للشعر والبشرة بالإضافة لفوائدهِ الصحية.. فزيت مُبارك هو من شجرةٍ مُباركة.

2_(ماتَ أخي)

قد تجرعتُ ألم الفِراق لأوّلِ مرّةٍ بحياتي في السابعةِ من عُمري؛ حينَ ماتَ أخي عبد اللَّه، ولم يَكُن قد تجاوزَ العام ونصف.. أذكُرُ ذلك اليوم وكأنَّهُ البارحة، حينها كُنتُ عائدة من المدرسة _يوم الخميس آخر يوم دراسي بالأسبوع_ وقد خَبّأتُ لهُ بعض الحلوى ظنّاً منّي بأنَّهُ سيتناولها، كُنتُ فَرِحةً بذلك حتّى إذا ما وصلتُ البيت وجدتُ الكثير من النساء مُتّشحاتٍ بالسواد، هرعتُ من المشهد الذي رأيت فأخذتُ أبحثُ عن أخي _فقد ودّعتهُ قبل ذهابي إلى المدرسة ببعضِ القُبلاتِ والأحضان_ وجدتُ لباسهُ لكنَّني لم أجدْهُ هو!

ظللتُ أبكي بُكاء اليتيم، وامتنعتُ عن تناول الطعام حتّى انقضى اليوم، مرّ الزمان على تلك الذِكرى، ولكنَّ عبد اللَّه لم يغب عن بالي لحظة واحدة.

والحمدُ لِلَّهِ الذي إذا مَنَعَ أعطى، فقد أعطانا اللَّهُ أخي وبضعة قلبي عبد اللَّه، عِوضًا عن سابقهِ عبد اللَّه، أدامهُ رَبّي ولا أفجع قلبي فيه.

أفلحَ الزمان في نسياني للكثيرِ من الأحداث، لكنَّهُ أخفقَ في نسياني لفقيدي الرضيع، الذي لا زلتُ أذكُرُ مَبسمهُ إلى الآن.

3_(غدًا ستكبُرين)

حينَ التحقتُ بالتعليم الإبتدائي كُنتُ لا أُجيدُ سوى قراءة قِصار سور القرآن الكريم، وتسميع حفظي للحروفِ الأبجدية، فسألتُ أُمّي: متى سأكبُرُ وأُجيدُ الكتابة والقراءة؟

طمأنتني بحنانها الفيّاض: غدًا ستكبُرينَ وتُجيدينَ الكتابة والقراءة مريومتي.

ولأنَّ عقلي طفولي فكنتُ أنتظرُ غدًا كُلّ يوم حتّى عَلِمتُ أنَّهُ المستقبل.

كُنتُ أحتفظُ بدفاترِ أخي الذي يكبرني بعامينِ، لأرى خطّهُ الجميل ونظمه الحَسن، فأُمسكُ بإحداها وأدعو رَبّي أن يُعلّمني كما علّمَ أخي رُغم أنَّي لم أتجاوز السابعة حينها.

كثيرًا ما تمنّيتُ أن أكبُر حتّى أبلغَ العشر سنوات، ثُمَّ بعدها ظننتُ أنَّ أقصى عُمر أكبرهُ سيكون الثامنة عشر، وسيتوقف الزمان عندها لتحيا مريم كما تُريد، ومرَّ الزمان وكَبُرتْ مريومة ليُصبِحَ عُمر الثامنة عشر مُجرد عنوان لذكرياتٍ جميلة _عاشتها_ مسطوراتٍ بدفترها ذو الخطّ الجميل، والنظم الحَسن كما كانَ دفتر أخيها.

4_(يا لها من أيَّامٍ رائعة)

كُلّما تقدّمَ بي العُمر كُلّما غلبني الحنين إلى زمنِ الطفولة؛ فذلك الزمان هو ما أجدْ بهِ ما ينقصني الآن من جدّتي وحياتي معها، وإخوتي وأيَّام الدراسة معًا في ذاتِ المدرسة، والمدرسة ومُعلّميني الكِرام.

يا لها من أيَّامٍ رائعة لكنَّها لن تُعَوّض!

لم أكُن أعلم أنَّني سأكبُرُ يوماً ما ويَشيخُ عقلي قبلَ آوانهِ، وتنضج حِكمتي ويُؤخَذ بمشورتي، لكنَّها الحياة فمتى فَهِمتَها نَضجتَ قبل آوانِ نُضجك.

كانَ يومي الطفولي يمرّ مرور الكِرام، فتوقظني أُمّي وإخوتي لنُصلّي الفجر سويًّا، وأحيانًا تفوتنا بركة صلاة الفجر فنُصلّي الصُبح قبلَ الذهاب إلى المدرسة، ثُمَّ نجلس لنذكر اللَّه كما عَلّمتنا أُمّي وبحضرتها، ثُمَّ نستمعُ إلى تلاوة القرآن الكريم إمَّا من المذياع أو التلفاز، ثُمَّ نذهب لنرتدي زيّ المدرسة في حين تُحضر لنا أُمّي وجبة الإفطار.. نُفطِر ثُمَّ نُودعها ونذهب مُبتسمينَ إلى المدرسة.

ندلف المدرسة نُلقي التحيّة على أصحابنا ثُمَّ نُمارس بعض التمارين الرياضية بطابورِ الصباح، وبعدها نصعد إلى الفصول لندرُس القيم والأخلاق ثُمَّ اللغة العربية، ثُمَّ الحساب، ثُمَّ اللغة الإنجليزية، ثُمَّ الخطّ

العربي وأخيراً قِصّة لطيفة مُقررة علينا تُناسب عقولنا وطريقة تفكيرنا.

أقصى طموح لي حينها أن يختارني مُعلّمي لأقرأ فِقرة من الدرس الذي يشرحهُ لنا، كما كانَ يوم الخميس أفضل أيَّامي الدراسية خلال الأسبوع؛ وذلك لوجود حصّة الإملاء والتي تُبيّن مُستوى تركيز التلميذ ومهارته، أذكُرُ حينَ حصلتُ على أعلى درجة في الإملاء على مُستوى فصلي كُنتُ حينها في الصفِّ الرابع الإبتدائي.

أصبحتُ الآن في عُمرِ مُعلّميني أو يزيد حينَ كُنتُ طفلة وتلميذة تُنصتْ لهم وتحفظ نصائحهم لتُطبقها فيما بعد.. فَنِعمَ القدوةِ كانوا هُم.

5_(ويكأنَّها البارحة)

سبحانَ ملك الملوك ربّ العِزّةِ والجبروت!

يا ربّنا لا نُحصي ثناءًا عليكَ أنتَ كما أثنيتَ على نفسك.

قد حالت الأحوال وزادت الأعمار وتقاربَ الزمان، حتّى أنَّني أسطُرُ ذكرياتٍ حدثت ويكأنَّها البارحة، فحينَ بلغتُ الثالثة عشر من عُمري مَرِضتْ جدّتي _رَحِمَها اللَّه_ فكنتُ أخشى فقدها؛ فقد كانت بالنسبةِ لي كُلّ شيء، وبعقلي الطفولي كُنتُ أدعو اللَّهَ ألَّا يقبضها حتّى يقبضني قبلها.. لكن لكُلّ أجلٍ كتاب والأعمار بيد اللَّه.

مَرّت الأيَّام وعاشت جدّتي ما كتبَ اللَّهُ لها أن تعيش ثُمَّ رحلت وكأنَّها لم تأتِ بعد!

تفكرتُ في الحُبّ فوجدتهُ بلاءًا؛ فحينَ نُحِبُّ نخشى على مَن نُحِبُّ حتّى من أنفسنا، فهم الأقربُ من حدودِ القلب والذي ينبضُ بالحياةِ بأمرِ اللَّهِ الكبير المُتعال.

نخشى عليهم مِن أن يُصيبهم سوء سواء من فِعلٍ أو قولٍ لذا ندعهم في مأمنٍ حصينٍ.. ندعهم في ودائعِ الرحمٰن.

رُغم أنَّ الحُبّ بلاء كما أسلفتُ إلَّا أنَّ الحياةَ لا تحلو إلَّا بهِ، وكفى بجعلِ الحُبّ وسيلَّة للتقرُّبِ إلى اللَّهِ؛ فالحبّ في اللَّهِ وللَّهِ هو أساس السعادة على مُطلقِ العموم.

الحياةُ جميلة ما أُسِسَت على طاعةِ اللَّهِ، والنّاس لبعضهم أرزاق، فاللهمَّ أجعل أرزاقنا في خيارِ خلقكَ وأبعد عنّا شِرارهم.. إنَّكَ رَبّي لسميعٌ قريبٌ مُجيبُ الدُعاء.

6_(مُذ عشرةِ أعوام)

تفَّحصتُ أشيائي المحفوظة بصندوقِ ذِكرياتي فوجدتُ إمساكية رمضان بألوانها الجذّابة، والتي أعطانيها أخي مُذ كُنتُ في التاسعة من عُمري أو يزيد قليلًا، نظرتُ إلى بعضِ ما يحويهِ الصندوق فوجدتُ صفحة إحدى المِجلّات الخاصّة بالأطفال، اِقتطعتها لجميلِ موضوعها ثُمَّ حَفِظتها بالصندوقِ مُذ عشرةِ أعوام.

وبالأمسِ القريب كُنتُ أحتفظُ بكُتيّبٍ أهدانيهِ أخي حينَ وصلتُ للصّفِ الخامس الابتدائي، كذلكَ ما يُزيّنُ ذِكرياتي الملموسة هذهِ مِسبحةٌ قد أهدتنيها صاحبتي العزيزة مُنذُ زمن.

عجيبٌ هذا الأمر؛ أنْ تَظلَّ حافِظًا لبعضِ عُمركَ على هيئةِ ذِكريات.

أذكُرُ حينَ ماتتْ جدّتي الحبيبة _رَحِمَها اللَّه_ أخذتُها سجادة الصّلاة الخاصّة بها وكذا مِسبحتها، ثُمَّ حَفِظتهما بعيدًا عن الأيدي، وكُلّما توّحشتها أخرجتُ المِسبحة ونظرتُ إليها؛ حتّى أقضي حاجتي من الشوقِ إليها.

حينَ كُنتُ في الصّفِ الثالث من مرحلةِ الثانويةِ العامّة أجرى المُعلّم لنا اِختبارًا على ما درسناهُ من المنهج، وبفضلِ رَبّي _سبحانهُ وتعالى_ انبهرَ مُعلّمي من إجاباتي والتي كانَ يُعدّها نموذجية، دقائق معدودات وظهرتْ النتيجة، فحصلتُ بفضلِ رَبّي على الدرجات النهائية (60/60)

آنذاك، ومُرفقٌ معها بالشُكرِ والتقدير وإمضاء مُعلّمي الراحل قبلَ أنْ ينقضي ذلكَ العام.

7_(لم تَكُن طبخة مُعقّدة)

سُبحان اللَّهِ العظيم وبحمدهِ!

كُنتُ في صِغري أُشارِكُ أُمّي أعمال البيت وأُساعدها بالمطبخِ، مع تركيزي الشديد على كيفيةِ طهوِها للطعام؛ لرُبّما أكونُ طاهية يومًا ما فاستعدّ من الآن.

كُنتُ أخشى من تجرُبةِ الطهي حتّى أنَّني لم أطهو طعامًا كاملًا بمُفردي إلى أنْ حدثَ ما أجبرني على ذلك؛ حيثُ مَرِضتْ أُمّي فعجزتْ عن طهي الطعام، كُنتُ حينها لم أتجاوز الثانية عشر من عُمري، سَمّيتُ باللَّهِ ودلفتُ المطبخ كطاهيةٍ لأوّلِ مرّة بعُمري، جهزتُ مكونات طبختي ثُمَّ شرعتُ في تنفيذ المَهمة قبل صلاة المغرب، وبفضلِ اللَّهِ الكريم أنهيتُ الطهي وقدّمتهُ لإخوتي بعد المغرب، فسعدوا بي أيُّما سعادة.

لم تَكُن طبخة مُعقّدة؛ فقد كانت دجاجًا وأرُّز وملوخية، استعنتُ برَبّي فكان لي خيرُ مُعين.

ما أودُّ قولهُ أنَّ بإمكاننا فِعل الكثير حتّى ما نراهُ صعيب هو سهْل إنْ استعنا باللَّهِ على قضائهِ.

حينَ تضعنا الحياة في مواقفٍ بعينها هُنا تظهر مدى قُدراتنا الحقيقية عن طريقِ كيفيةِ تعامُلنا مع تلك المواقف ونظرتنا لها.

حينَ يبتلينا الرحمٰن فنصبر فيبتلينا فنصبر فيبتلينا ما هذا إلَّا ليُخرِجَ أجمل ما فينا.

سُبحانَكَ يا مَن تسوقُ لنا الخير حتّى في البلايا!

8_(حينَ ماتتْ جدّتي)

حينَ ماتتْ جدّتي _رَحِمَها اللَّه_ شعرتُ وكأنَّها لم تأتي الدنيا من قبل رُغم حياتها الطويلة بها، ظللتُ أُفكّر من حينها إلى الآن حتّى توصلتُ لِمَا قَنَعَ بهِ عقلي، وهو أنَّ الشخص حينَ يموت يُمحَى من الدنيا وكأنَّهُ لم يأتيها، ورُغم أنَّ جدّتي تركتْ أثرها بتركِ الكثير من الأحفاد، والسيرة العَطِرَة والأخلاق النبيلة، بالإضافة لأبيضِ قلبها وتقواها إلَّا أنَّني رأيتُ وكأنَّها لم تأتِ الدنيا.

فقد رحلتْ ورحلَ معها بعض عُمري، رحلتْ دونَ أن تُكملَ ما بدأتهُ لي من سردِ قصصها القديمة في عهدها المُنصرم، رحلتْ ورحلَ معها بعض قلبي.

جدّتي رُغم أنّي بعض أثرها إلَّا أنَّها كأن لم تأتِ بعد.

هكذا هي الدنيا.. فأفضل ما يُفعَلُ بها أن تجعلها طريقك إلى الدارِ الآخرة (دار الخلود)، فتجتهد في طاعةِ اللَّهِ وتفعل ما يُرضيهِ، وتجتنب مَن يُعرقلك عن فِعلِ ذلك بل وتُجافيهِ أيضًا.

9_(كُنتُ في الصفِّ الخامس الإبتدائي)

أحببتُ القراءة مُنذُ صِغري فكانَ إخوتي يُهدونني الكُتبِ لأسعدَ وأنتفع بها، وقد أهداني أخي العزيز كتاباً لتعلُّم اللغة الإنجليزية حينما كُنتُ في الصفِّ الخامس الإبتدائي، ففرحتُ كثيراً بتعلُّمي لبعض الكلمات وفَرِحَ أخي بترديدي لها، وأخذ يُباهي بي.

كُنتُ أظنُّ أنَّ اللغةَ العربية ثقيلة على نفسي خاصّةً في المرحلةِ الإبتدائية _رُغم اِجتيازي لإختبارتها بتقدير جيّد جداً_ حتّى تذوقتُ جمالها وفصاحتها وروعة صياغتها وبلاغتها حينَ نهلتُ أسرارها من القرآن الكريم، فأضحيتُ أقرأ بالعربيةِ الفُصحى.

أذكُرُ حينَ بلغتُ مرحلة الثانوية العامّة تحديدًا في الصفِّ الأوّلِ منها؛ كانت قصّة أبو الفوارس مُقررة للدراسة، أحببتُ تلك القصّة كثيرًا وأُعجبتُ ببطلها المغوار عنترة بن شدّاد، فحَفظتُ ما تقرر علينا من ملعقتهِ وأصبحتُ أُرددها ليل نهار.

10_(زواج أُختي)

تزوجتْ أُختي مُنذُ زمنٍ بعيد، إذ كُنتُ حينها لم أتجاوز السابعة من عُمري، أذكُرُ بعضًا من ذلكَ اليوم، يوم زفافها، والتي تألقتْ فيهِ كأميرةٍ رائعة.

ذلكَ اليوم الذي ذرفتْ فيهِ أُختي دمعًا كثيرًا، لم أَكُن أعي تلكَ المشاعر الجيّاشة التي تنتاب الفتاة في مِثلِ هذا اليوم، لكنَّ قلبي رَقَّ لها فذرفتْ عيناي.

وبعدها بتسعةِ أشهُرٍ أصبحتُ خالة لأوّلِ مرّة بعمري، خالة لحُسامٍ الغالي ابن الغالية.

وتوالتْ الأعوام ليُهدينا الرحمٰن بثلاثةِ أبناء، حملتهم بطن أُختي، وأحبَّهم قلبي.

11_عَلَّمني المطبخ

(1)

أذكُرُ حينَ دلفتُ المطبخ كَطاهيةٍ لأوّلِ مرّة بعمري، وقتها لم أَكُن قد تجاوزتُ الثالثةَ عشر ربيعًا، ورغم أنَّني كُنتُ أُساعدَ أُمّي في الطهي وأعمال البيت مُنذُ بلوغي الثامنة تقريبًا، إلَّا أنَّ دخولي المطبخ كَطاهيةٍ أصابني ببعضِ الرهبة، ومع ذلكَ تغلّبتُ على رهبتي وأبليتُ بلاءً حسنًا.

تفكّرتُ في المطبخِ فوجدتهُ أكبر من كونهِ بيتِ المؤنة وحسب؛ بل هو مُعلّمٌ صادق النُصح، وافي الوعود، قيّم المعلومات.

زادني دخولي المطبخ فوقَ الصبرِ صبرًا؛ فبينَ إعدادِ الطعام ونُضجهِ هُناكَ مَساحة من الصبرِ لا بُدَّ وأنْ يَمُرَّ بها، وبينَ أنواع الطعام المُتنوعة توجد فروقات فيما بينها.

تَعَلَّمتُ من المطبخِ الصبر، فما أودُّ نَيلهُ لن يأتيني إلَّا بالسعي والصبر، وقبلهم الرضا بما قدّرَ اللَّه،

أحببتُ تناول الأرز بالشعيرية؛ إذ كانتْ أُمّي تطهوهُ بطريقةٍ شهيّة للغاية، كُنتُ أظُنُّ أنَّهُ لا يحتاج وقتًا حتّى دلفتُ المطبخ وقُمتُ بعملِ أوّل أرزٍ بالشعيرية من يدي، لا أُنكِرُ أنَّني أخذتُ وقتًا حتّى أضحتْ لديَّ خِبرة في عملِ الأرز عمومًا، والأرز بالشعيرية خصوصًا.

لكنَّ ذلكَ لا يُنسيني أنَّ الصبر نهايتهِ سعيدة ومُرضية أيضًا، فقد صبرتُ على نُضجِ الأرز، وفي نهايةِ الأمر تناولتهُ بحُبٍّ أنساني المُدّة التي صبرتها.

12_عَلَّمني المطبخ

(2)

المطبخ هو ذاكَ المكان الذي يُشعرني بالسعادة؛ فحينَ أشرعُ في طهي الطعام، أشعُرُ بخفةٍ تُثيرُ الذهن، خاصّةً وإنْ كُنتُ أطهو نوعًا مُحبَّبًا بالنسبةِ لي، أو نوعًا يُفضّلهُ إخوتي.

كثيرًا ما حَضَرَتْ المَلَكَة وأنا بقلبِ المطبخِ أطهو الطعام، وخصوصًا أثناء وضع إناءِ الطهي على النار، حينها تأتيني الأفكار مُغرية لتجعلني أتركُ المطبخ مُسرعةً إلى قلمي ودفتري، عساني أُسجل بعضًا منها حتّى أفرُغَ من الطهي، بينما يُناديني أخي بالإسراعِ لئلا يحترق الطعام!

13_عَلَّمني المطبخ

(3)

تَعلّمتُ من تواجُدي بالمطبخِ أنَّ كُلّ شيءٍ مُعقّد لا بُدَّ لهُ من حلّ، وأنَّ بالإمكانِ اِرضاء مَن تُحِبُّ بما تملِكهُ من إمكانات، حتّى وإنْ بدتْ الأمور غير ذلك؛ فمثلًا حينَ أتاني أخي ببعضِ السمك لأقليهِ أرادَ بعض إخوتي أنْ يتناولوهُ مشوي، بينما البعض الآخر يُريدهُ مقلي، كما أنَّ الوقتَ لا يسعني فموعد تناول الطعام قد اِقترب.

جاءتني فِكرة رائعة لأُرضي الجميع، اِستعنتُ باللَّهِ العليِّ العظيم، وغسّلتُ السمكَ جيّدًا وقُمتُ بتتبيلهِ ببعضِ البُهار، وحشوتُ باطنهُ بالخلطة، ثُمَّ وضعتُ نصف الكمّية بصينيةٍ فوضعتها بداخلِ الفُرن، وأشعلتُ عليها الشوّاية، أمَّا النصف الآخر من الكَمّية فقد قُمتُ بقليهِ بمقلايةٍ غويطة، فَرِحَ إخوتي بتصرُّفي، ورضوا جميعًا.

لا تبخل ببذلِ جُهدكَ لإسعادِ مَن تُحِبّ، ولا تستصغر فِعلًا حسنًا، فالكلمة تَلقى صداها بالقلوب، فلا تحقرنَّ بسمة، ولا تستأثر همسة حانَ موعدها.

حانَ وقت تناول الطعام، وكُنتُ قد أنهيتُ السمكَ للتوّ، فوضعتهُ على المائدةِ مع أرز صيادية، والسلطة وبعض الطحينة، وطبعًا الخُبز الساخن.

14_(حينَ بلغتُ الخامسة)

حينَ بلغتُ الخامسةَ رأيتُ أُمّي تتفانى في عملِها _كراعيةٍ على بيتِ زوجها_ حتّى أنَّني فيما بعدُ قُلتُ لها: عَلَامَ كُلّ هذا الجُهد والإخلاص أُمّي؟

تفاجأتْ من سؤالي فأجابتني: أنا لا أعملُ لبشرٍ!

سألتها: لا تعملينَ لبشرٍ، فلماذا تعملينَ إذًا؟

تبسمتْ لي قبلَ أنْ تُضيف: أعملُ لوجهِ اللَّهِ مريومتي الصغيرة.

سألتها: إذًا أنتِ تُحبّينَ اللَّهَ كثيرًا؟

أجابتْ: أجل.

قُلتُ لها: أكثرَ منّي وإخوتي؟

قالت: أنتم رَّوحي لكنَّني أُحِبُّ اللَّهَ أكثرَ من رَّوحي.

ظللتُ أرقُب أُمّي وذات مرّة قُلتُ لها: أُمّي لا تُتقني عملكِ اليوم فأنتِ مُتعبةٌ للغاية، لكنَّها صّبرت حتّى أنهت ما كانتْ تعمل، ثُمَّ علّمتني أنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إتقان العمل، كما أنَّ الإخلاص سرٌّ من أسرارهِ سُبحانَهُ وتعالى يؤتيهِ مَن يُحِبّ، لم أختبر أُمّي بعدها ورويتُ قلبي بحُبِّ رَبّي مُقتديةٌ بأُمّي.

أذكُرُ في طفولتي حينَ تأتي صّلاة الجُمعة، كانتْ أُمّي تُغسلني وتُزيننني بالثوبِ الحَسن الساتر، ثُمَّ تُرسلني لجدّتي _رَحِمَها اللَّه_ كي تصطحبني معها إلى المسجدِ؛ حيثُ المكان المُخصص للنساء، فأجلسُ بجوارها _رَحِمَها اللَّه_ نُنصِتُ للخِطبة ثُمَّ نؤدي الفريضة، وبعدها أعودُ معها _رَحِمَها اللَّه _ لنتناول الطعام سويًا، في حين كانتْ أُمّي تُجالسُ إخوتي يتدارسونَ كتاب اللَّهِ فيما بينهم، فآتي أنا واستأنفَ معها ما فاتني.

مرحلة الطفولة هي الأرض الخِصبة التي تُنبِتُ ما يُزرعَ بها فيما بعد، بل هي أهم وأخطر مرحلة من مراحل حياة الإنسان؛ لذا فمَن أرادَ الخيرَ دُنيا وأُخرى فليُحسن الزرع.

15_(حينَ بلغتُ الثانيةَ عشر)

مَيَّزني رَبّي بمَيزاتٍ عِدّة، منها الموهبة الأدبية؛ فقد أنَعَمَ عليَّ بها في صِغري، لكنَّني بدأتُ في اِكتشافها على مشارفِ عامي الثاني عشر، حينها بدأتْ موهبتي تظهر جليًّا فكتبتُ الشِعر، ثُمَّ أتقنتُ الإلقاء.

كُنتُ أكتبُ الشِعر وأحفظهُ بدفتري الخاصّ، وبعدها بدأتُ أعرضُ موهبتي على مُحيطي؛ حيثُ الأُسرة والأقارب، ثُمَّ المدرسة والأصدقاء.

كُلّما تقدّمَ بيَ العُمر قارنتُ كِتاباتي الحاضرة بالماضية، فوجدتُ بعضها ما هو إلَّا خربشات طفلة أو قُلْ عبث طفلة.

وتراجعتُ عن بعضها نَظرًا لتغيُّر وجهة نظري بنضوجي العقلي.

16_(حينَ بلغتُ الرابعةَ عشر)

سُبحانَ مَن أنعمَ علينا بالذاكرة!

مَنَّ اللَّهُ علينا بِنعمائهِ التي تُحصَى ولا تُعَدّ، كما مَنَعَ عنّا لحِكمةٍ هو عالِمُها، وفي كُلِّ خير، فما أرادهُ كان لِما فيهِ مِن الخير، وما لم يشأ لم يَكُن لِما يَحملهُ مِن ضررٍ خفي، فلهُ الحمدُ على العطاءِ مرّة وعلى المَنعِ مرّات.

حينَ بلغتُ الرابعةَ عشرَ مِن عُمري حَدَثَ أمامَ عيني موقفًا لم أتبيّنهُ ساعَتها لصِغرِ سنّي، لكنَّني تبيّنتهُ فيما بعد بكُلِّ تأكيد؛ إذ ذهبتْ إحدى الصديقاتِ بالمدرسةِ الإعدادية لتعلمَ موقعها من نتيجةِ اِختبار آخر العام، كانَ أحد المُعلّمين هو المسؤول عن تسليمِ النتائج للطلّاب، وكانَ هذا المُعلّم مشهورًا بتقواهُ وورَعهِ بينَ النَّاس، كما كانوا يُجلّونهُ لحملهِ كتاب اللَّهِ العظيم، وطبيعي لِما سَلَفَ ذِكرهِ من صفاتٍ أنْ يكونَ مُلتحي، ذهبتْ الفتاة بصُحبةِ أُخرى فوجدتا باب المدرسة قد أُغلِق، همّتا بالذهابِ فإذ بذاكَ المُعلّم قد أتاهُما من المَقهى المُقابل للمدرسة، أراكَ تتساءل: كيفَ لمدرسةٍ أنْ يُقابلها مقهى؟

لا تهتم، هكذا كانتْ الأمور تسير على ما يُرام، طالما أنَّ صاحبَ المقهى قد أنشأها على أرض يملكها، لا على أرضِ المدرسة!

ألقى المُعلّم السلام، ردّتْ الفتاتان، سألتهُ إحداهما عن نتيجتها، أخرجَ الكثير من النتائج، إذ كانَ يدُسّها بجيبِ بِنطاله، أعطاها نتيجتها ثُمَّ أرسلَ معها السلام لأبيها، الذي هو ابنُ عمّه، والسلام أمانة.

أمَّا الأُخرى فكانتْ لا تقربهُ فلم يُعطِها حقّها، وراحَ يدُسّها في جيبهِ من جديد، سألتهُ: لِم؟

أجابها كاذبًا دونَ أنْ يَخجلَ من نفسه: ليستْ معي، ستكون مُتوفرة في القادمِ من الأيَّام.

تفكّرتُ في هذا الموقف طويلًا لكنَّ عقلي لم يستوعب آنذاك، أو قُلْ قد بدا من الغَرابةِ بالنسبةِ لي أنْ يكونَ المرء على عكسِ ما يُحاول أنْ يُثبتَ للنَّاسِ ماهيتهِ الحقيقية.

مَرّت الأيَّام وأثبتتْ أنَّ التدّيُن الحقيقي هو سلوك فِعلي أو قُلْ تطبيقي لِما يأمركَ اللَّهُ بهِ وما ينهاكَ عنه، لا ما ترتديهِ من جلبابٍ وما تُطلقهُ من لحية، ولا ما يقولهُ البعض عنكَ لغرضٍ ما، وإنْ كُنتُ لا أُعَمِّمَ على سائرِ المُجلبَبين المُلتحين؛ لأنَّ منهم مَن هو أهلٌ لوصفةِ مُسلم قولًا وفِعلًا، لكنَّني قصدتُ مَن هُم على شاكلةِ المُعلّم السالف ذِكره.

أذكُرُ حينَ كُنتُ في السابعة من عُمري أو يزيد قليلًا كُنتُ أسمعُ أُمّي تدعو اللَّهَ كثيرًا أنْ يكونَ عملها خالصًا لوجههِ سُبحانَهُ وتعالى وأنْ يُنّقي قلبها من الرياءِ والسُمعة.

عرضتُ الموقفَ الذي شاهدتُ على أُمّي فابتسمتْ قبلَ أنْ تُضيف: إنَّ اللَّهَ لا يخفى عليهِ شيءٌ في الأرضِ ولا في السماء، كما أنَّهُ يعلمُ السرَّ وأخفى، وما كانَ نسيًّا حاشاه.

يحضرني قولَ اللَّهِ تعالى: "فلا تُزكّوا أنفسكم هو أعلمُ بمَن اِتقى.

17_(حينَ بلغتُ الخامسةَ عشر)

وصلتُ للصفِّ الثالث الإعدادي، وقتها جعلتُ قلمي ودفتري هُما رفيقاي، فكُنتُ أسطُر ما يجولُ بخاطري، ومن حينها لم أترُك كِتابة الخواطر.

ومُنذُ ذلكَ الزمان البعيد وأنا أكتُبُ الخواطر المُتنوعة، لا أكلّ ولا أملّ بفضلِ رَبّي العليِّ العظيم.

18_(حينَ بلغتُ السادسةَ عشر)

ظللتُ أُتقِنُ الشِعرَ كِتابةً وإلقاءً حتّى بلغتُ السادسةَ عشر، حينها اِكتشفتُ مَيزةً أُخرى بموهبتي الأدبية، وهي كِتابةِ القصّة القصيرة، شرعتُ في كِتابتها ووجدتُها قريبةٌ من قلبي، وتمّكنتُ من الكِتابة فيها فيما بعد.

ورغم الأعوام العديدة الماضية على هذهِ الذِكرى إلَّا أنَّني أحتفظُ ببعضِ القصص التي كتبتها آنذاك.

19_(حينَ بلغتُ السابعةَ عشر)

مَضتْ سنة على دخولي مجال كِتابة القصّة القصيرة، لأبدأ بعدها رحلةً أُخرى بأروقةِ موهبتي الأدبية الربَّانية؛ حيثُ دلفتُ مجال كِتابة المقال، فكتبتُ بعض المقالات، ولا زلتُ أذكُرُ عنوان أوّل مقالٍ كتبتهُ وهو (النيل مُستقبلنا)، حينها شاركتُ بهِ في مُسابقةٍ أعدَّتها المدرسة، فوفقني رَبّي _سُبحانَهُ وتعالى_ وجعلَ النجاحَ حليفي.

ومن حينها لم أُجافِ كِتابة المقال، بل تمّيزتُ فيها بفضلِ رَبّي المُنعِم المنّان، لأسطُرَ بَنات أفكاري بمؤلفاتٍ عِدّة.

20_(حينَ بلغتُ الرابعةَ والعشرين)

لم أكُن أعلم عن الومضاتِ شيء حتّى بلغتُ عامي الرابع والعشرون، فكتبتُ الومضات بإتقان، ثُمَّ تطلعتُ لدخول مجال كِتابة الرواية؛ كَنوعٍ من التجريب، وبالفِعلِ كتبتُ العديد من الروايات القصيرة، كذلكَ كتبتُ في القصّة القصيرة جدًّا والأقصوصة.

وعرفتُ المُتلازمة فلم أحرم عقلي من الكِتابة فيها فكانتْ بعض المُتلازمات.

ورغم مرور الأعوام إلَّا أنَّ ذلكَ العام تظلّ ذِكراهُ عَطِرة بذاكرتي.

21_(وذهبَ على الفاضي)

في صِغري عندما كُنتُ في الثانوية العامّة أُشيعَ خبر المِنَح التعليمية، لكنَّني لم أُصدّق، حتّى اِتخذتْ صديقاتي خطواتٍ جادّة في هذا الموضوع، وأخذنَّ يُجهّزنَّ أوراقهُنَّ، وأقنعنني بذلك، ثُمَّ جهّزتُ أوراقي كاملة بعدما ذهبتُ إلى الإدارة التعليمية والبريد وغيره.

حينَ قدّمتُ أوراقي فوجئتُ بإلغاء المنحة، وكذلكَ صديقاتي، وذهبَ ما فعلتهُ على الفاضي.

ورغم ذلك لم أحزن؛ لأنَّني سعيتُ وفعلتُ ما بوسعي أنْ أفعله..
وسيظلّ ذلك اليوم عزيزٌ على نفسي وقلبي، لأنَّني تعبتُ فيهِ كثيرًا ولم أستسلِم.

22_(غالي والطلب رخيص)

في طفولتي، أرسلتني أُمّي لإحدى الجارات، لإعادةِ ما استعارتهُ من مالٍ من أُمّي، فحينَ وصلتُ وألقيتُ عليها السلام، أبلغتها بما أُرسلتُ بهِ إليها، فقالت لي: أوصلي سلامي لأُمّكِ وقولي لها: غالي والطلب رخيص!

عُدتُ لأُمّي بالكلامِ لا بالمال، ولم أَكُن أعلم مَقصد الجارة من تلكَ الكلمات حتّى كبرتُ وعَلِمت.

23_(أبا مُحمّد)

في صِغري أرسلتني أُمّي إلى خالي علي (أبا مُحمّد) لقضاءِ مصلحةٍ بعَينها، وقد قُضيَتْ بفضلِ اللَّهِ سُبحانَهُ وتعالى.

لم يتأخر علينا خالي علي في شيءٍ قصدناهُ فيهِ، كما لم يَبخل عليَّ في النصيحة؛ فدائمًا يَسمعُ منّي ويدعمني بإيجابيتهِ الفيَّاضة، ويُغشيني بحنانهِ الغامر.

خالي علي خالي الحبيب، وصاحبي المُخلص، وناصحي الأمين، فليحفظهُ اللَّهُ لي وليجبرني فيه.

24_(أبا طه)

مَرِضَ خالي الغالي مبروك (أبا طه) فذهبتُ لزيارته، وهُناكَ تعلّمتُ من حضرتهِ عِدّة أشياء غير تلكَ التي تعلّمتها قبلَ مرضه، ففي طبيعتهِ صابر وفي مرضهِ مُصطبر.

تعلّمتُ من خالي مبروك أنَّ الطموح ليسَ لهُ عُمرٌ مُحدَد، كما أنَّ الإنسان بإستطاعتهِ تغيير واقعهِ وتحديد مصيره، وأنَّ الدُّنيا طوع الإنسان ما أطاعَ الإنسان ربّه، كما أنَّ كلمة مُستحيل ليسَ لها محلّ في قاموسِ الناجحين.

لا أنسى إيجابية خالي حبيبي مبروك في دعمهِ لي ومدحهِ فيَّ، وبحثهِ لي عن سُبل راحتي، وتقديرهِ واِحترامهِ وتشجيعهِ الدائم لي، كما كانَ يُلّقبني بالفيلسوفة.

خالي مبروك خالي الغالي وصاحبي الودود، وناصحي الأمين، والذي أعتبرهُ أبًا وليسَ خالًا فحسب، فحفظهُ اللَّهُ وباركَ فيه.

25_(أبا أنس)

قد تربيتُ على يدِ خالي رمضان (أبا أنس)، ففي طفولتي علّمني الحياة، وكيفية مُعاملاتها، كما علّمني كيف أنجح وأشار لي على هدفي الذي غابَ عنّي حينها.

لم يبخل عليَّ خالي رمضان في شيء، ففي النُصحِ لا يحتاج وصاية، وفي المدح والثناء كذلك.

خالي رمضان هو مَن عرّفني قيمة العِلم بعدَ أنْ حبَّبني فيهِ مُذ كُنتُ طفلة، فرَضي اللَّهُ عنهُ وأرضاه.

مريم توركان